دلالات الطبيعة في شعر طاهر زمخشري

الباحثة / عفراء بنت عثمان الحسون
بحث مقدم للتسجيل لدرجة الدكتوراة بقسم اللغة العربية
كلية الآداب –جامعة الملك سعود– المملكة العربية السعودية

مقدمة:

لعل خير من سبروا أغوار الطبيعة ونفدوا إلى أعماقها، وتعاطفوا معها هم الرومانسيون، وإن كان الشعراء من قديم الزمان قد لهجوا بها، وقد أسرتهم مشاهدها فراحوا يستكنهون أسرارها، ويشيدون بجمالها، ومنهم من ارتفع بها إلى مرتبة التشخيص الحي والتعاطف المتبادل، فبادلوها حباً بحب، وعطفاً بعطف، وبثوها آلامهم وأحزانهم، ورأوا فيها الأم الرؤوم التى يلوذون بأحضانها هروبًا من الواقع المر والنوازل الفادحة. لكن الرومانسيين هروبوا إلى أحضانها فرارًا من لهيب الحياة وقسوة الأحداث، ودعوها أمهم الحنون، وألقوا بين مظاهرها المتنوعة أحزان نفوسهم، وخلعوا عليها مشكلاتهم، وحلوا فيها، وامتزجوا فيها، ولم يكتفوا بوصفها من الخارج، بل غاصوا في أعماقها، وأدركوا أسرارها، وما وراء المظاهر الخارجية منها، وتوصلوا إلى روحها[1].

ويُعد طاهر زمخشري أحد الشعراء الذين تأثروا بالنزعة الرومانسية في شعرهم، ولاسيما في وصف الطبيعة، والطبيعة في شعره شاخصة تنبئ عن نفسها، وقصائده في دواوينه المختلفة معرض عظيم لمظاهرها، فهو أحياناً يقصد إليها قصدًا، وأحياناً أخرى يوظفها للدلالة عما يعانيه ويحس به ويختلج في نفسه شأن سائر الشعراء الرومانسيين[2].

([1]) انظر: طاهر زمخشري: حياته وشعره، عبد الله عبدالخالق مصطفى، ص ١١٩.

([2]) انظر: جماعة أبوللو وأثرها في الشعر الحديث، عبد العزيز الدسوقي، ص ٤٥٣.

وللطبيعة في هذا كله دلالات تدل عليها؛ فهي تارة تدل على حالاته النفسية المختلفة، وتارة أخرى يرمز بعناصرها ومفرداتها إلى أشياء أخرى تتصل بحياته وواقعه الشعوري، وتارة ثالثة يعبر بها عن مجتمعه وما يعج به.

أهمية الموضوع:

جوهر الشعر هو العودة إلى الأصل، هذا الأصل الذي يعد الطبيعة –الخارجية في الكون، والطبيعة الداخلية في النفس الإنسانية– أهم عناصره، وبخاصة في توافق الطبيعتين معاً، ممثلاً في عشق الشاعر لمظاهر الطبيعة الكونية، وميله لقوانينها.

والنزعات الفطرية جزء لا يتجزأ من طبيعة الكون، ولهذا فإن اللقاء بين الطبيعة التي يراها الشاعر، ويسمعها في العالم الخارجي، وبين طبيعته الداخلية، هو لقاء طبيعي تماماً؛ لأنه لقاء الجزء بالكل، ذلك الجزء الذي لا يشعر بالراحة والسعادة، إلا إذا اندمج في هذا الكل(١).

والشعر القديم –وإن اهتم بالطبيعة– فإن اهتمامه لا يرقى إلى مستوى الطريقة التي يتفاعل بها الشعر الحديث «فالشعر العربي لم يكن يحتفل بالطبيعة هذا الاحتفال، وهو إن كان قد وصف جوانب شتى من محاسنها لاسيما الربيع والأزهار، فقد بقي أن يجلوها وحدة كاملة، وكلاً لايتجزأ، وهذا مافعله الشعر المعاصر»(٢).

والشعراء الرومانتيكيون هم أكثر الشعراء احتفالاً بالطبيعة، وإذا تحدثنا عن ذلك في المنجز السعودي، فإن اسم طاهر زمخشري يبدو الأكثر حضوراً؛ فهو ممن أولى الطبيعة اهتماماً خاصًا في شعره، فكانت عاملاً مهما في تحريك قريحته الشعرية.

أسباب اختيار الموضوع:

- الرغبة الصادقة في الكشف عن كوامن نفس الشاعر الوجداني طاهر زمخشري، وتلمس نظرته للكون والحياة، وشعر الطبيعة يعبر عن هذا بدقة.

(٢) انظر: نظرية الطبيعة والعودة إلى الأصل، د. صلاح عيد، القاهرة، ص ١٦.

(٣) الاتجاه الرومانسي في الشعر العربي الحديث، د. قريرة زرقون نصر، بنغازي، ليبيا الجماهيرية، ٢٠٠٦ م، ص ١٢٢.

- احتل الحديث عن الطبيعة، وأثرها في نفس الشاعر، جزءًا غير يسير في نصوصه الشعرية، حتى إنه عنون مجموعتيه بمفردات دالة على الطبيعة (النيل، والخضراء)، وهذا دعا الباحثة إلى أن تحاول قراءة هذا المنجز الطبيعي، وتفسير حضوره في شعر الشاعر.

أهداف البحث:

- محاولة تفسير حضور الطبيعة في شعر طاهر زمخشري، وحرصه على اللجوء إليها في كل زفرة شعرية.
- محاولة الكشف عن الطبيعة وتجلياتها، وتحديد موقف الشاعر منها في منجز طاهر زمخشري.

المدونة العلمية:

أصدر طاهر زمخشري عدداً من الدواوين، وجمعها في مجموعتين كبيرتين هما: مجموعة "النيل"، ومجموعة "الخضراء"، وقد كان لمظاهر الطبيعة وألوانها وصفاتها حضور في أسماء الدواوين، ففي مجموعة النيل[١]:

(أحلام الربيع)، (همسات)، (أنفاس الربيع)، (على ضفاف النيل)، (أغاريد الصحراء)، (عودة غريب).

أما مجموعة الخضراء[٢] فقد تضمنت الدواوين الآتية:

(الأفق الأخضر)، (الشراع الرفراف)، (معازف الأشجان)، (حقيبة الذكريات)، (نافذة على القمر)، (عبير الذكريات).

منهج البحث:

ستحاول الباحثة استثمار المنهج الموضوعاتي في دراستها لحضور الطبيعة في شعر طاهر زمخشري، وفي تفسيرها لكثير من الظواهر الناطقة في هذا السياق، كما أنها ستستفيد من تقنيات المهنج الأسلوبي في دراستها للخصائص الفنية لشعر الطبيعة، وتحديداً في دراسة المعجم الشعري.

---

(١) مجموعة النيل، طاهر زمخشري، مطبوعات تهامة، جدة، ط ١، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

(٢) مجموعة الخضراء، طاهر زمخشري، مطبوعات تهامة، جدة، ط ١، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

وتحقيقاً لأهداف البحث فقد قسمت الباحثة هذا البحث إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: الدلالات النفسية.

المبحث الثاني: الدلالات الاجتماعية

المبحث الثالث: الدلالـــة الـــرمـــزيـــــة.

المبحث الأول: الدلالات النفسية.

كانت الطبيعة عند طاهر قلبًا نابضًا وحياة شاملة ونفسًا نحس بها، ونشعر بآلامها وآمالها،

كما تتفق في دلالتها مع رؤية د. عز الدين اسماعيل بأنها «وليدة اللاشعور، وأنها كالحلم، تتخذ من الرموز أو الصور النفسية ما ينفّس عن الرغبات»[١].

وعند قراءة لشعر البيئة الطبيعية عند الزمخشري وفق المنظور النفسي نجد تفسيراً لمعنى "المثال" الذي ينتهي إليه الشاعر في كل مايتأمله من عناصر الطبيعة.

والسؤال المطروح: لماذا كان الشاعر يلح على فكرة "المثال" وإكساب عناصر الطبيعة هذه الصفة من خلال مايسمى بأنسنة الطبيعة؟

قد تكون الإجابة السريعة والبديهية التأثر بالمنهج الرومانسي، ولكن الباحثة تجد تفسيراً لذلك وفق نظرية إدلر حول الشعور بالنقص؛ حيث بدأ آدلر[٢] طرح فكرة الشعور بالنقص بالضعف الجسدي الذي هو شعور بالعجز، ثم فيما بعد أضاف الجانب الاجتماعي، وأصبح الشعور بالنقص ذو أبعاد ثلاثة جسدي، ونفسي، واجتماعي.

ويرجع هذا الشعور إلى البدايات الأولى من التكوين النفسي، فالعجز والعيوب هي التي تولد الشعور بالنقص، وهو شعور لايستطيع تجنبه كل إنسان يتمتع بإرادة أساسية في القوة والتفوق والسيطرة. فالطفل يتعرف على صفاته وإمكانياته العضوية من خلال تجربته الاجتماعية، وبفعل المعاناة الطويلة من الشعور بالنقص يتبلور هدفه في تجاوز ضعفه الطبيعي بتذليل الصعوبات التي تواجهه، وذلك ببناء علاقاته الاجتماعية، وهذا يحدث عندما يكتشف الطفل أناه، ويبدأ برسم هدفه، لذا طرح آدلر فكرة أو مفهوم التعويض كميكانيزم دفاعي لتغطية الشعور بالنقص، وتحقيق التفوق، والشعور واللاشعور ليسا قطبين متضادين للنفس، ولكنهما مترابطين؛ لأن الرغبات والميول نفسها والشعور بالنقص والرغبة في التفوق يشكلان وحدة دينامكية.

وعلى ضوء ماسبق، ومن خلال قراءة متمعنة في الدراسات المتواترة عن نشأة الزمخشري والتي كشفت عن طفولة بائسة مليئة بالحرمان عاشها الشاعر في بدايات

---

(١) التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، ط ٤، ص ٥٥.

(٢) انظر: عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ص ٥٥ وما بعدها.

حياته، نجد تفسيراً لتلك النزعة للمثال أو الجنوح للكمال المطلق في رؤيته الشعرية والفلسفية لكل مظاهر الطبيعة، فالدافع الرئيس لتلك النزعة هو مركب نقص، لذلك نجد الشاعر ممن «ينغمسون في فتنة الطبيعة حتى ولو كانت تلك المفاتن من نسج خيالاتهم وتصوراتهم»[١]، وهي رؤية لايتوانى الزمخشري عن التصريح بها كما نجد في قوله: «أنا لم أهرب من الحياة، ولم أحدد رغبتي الشاعرة.. الحياة عندي هي الصورة المتكاملة، والرومانسية تعطيني صورة هذه الحياة»[٢].

ولكون الشاعر العربي نمطاً انفعالياً تهزه المواقف وتؤثر فيه الأحداث والأقوال[٣] وفق الشاعر في صوره عن الطبيعة في عرض مكنونات نفسه، وأحواله المختلفة من حزن وسرور وألم وأمل ورغبة وتمرد وعزلة واغتراب، وكل ذلك يبدو في شعره في الطبيعة جليًا بينًا، وقد توسل الشاعر بعناصر الطبيعة ومفرداتها للدلالة على حالته النفسية، وتصوير معاناته وأفراحه وأتراحه وآلامه وآماله، ومن ذلك قصيدته "مسرح الحياة"، ففي أحد مقاطعها حوار رائع عنون له بقوله: "أنا والطير"، بدأ فيه ببيان حال الطير الذي يشعر بالسعادة أو يشعر نفسه بها على الرغم من كآبة الكون حوله، فهو دائم سعيد أو يبحث عن السعادة أنَّى وجدها. فقال[٤]:

فلـــك الآن مـــن حيـــاتي نهـــج مـــستقيم إلـــى اقتنـــاص الهنـــاء

قلت: يا طيـــر ليـــت نفـــسي تـــصفو مـــن حيـــاة حفيلـــة بالـــشقاء

فأنـــا الهـــادئ الكئيـــب وقلبـــي ضـــيق الأفـــق، مرهـــقٌ بالعنـــاء

لـــست أســـطيع أن أجاريـــك شـــجوا غيـــر أن التغريـــد منـــك دوائـــى

---

(١) الأدب الحديث: تاريخ ودراسات، محمد بن سعد بن حسين، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط ١، ١٤٠٤هـ –١٩٨٣م، ص ٣٠٩.

(٢) معنى الحياة، أ. آدلر، ترجمة: عادل نجيب بشرى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٥٤ ومابعدها.

(٣) انظر: التحليل النفسي للذات العربية: أنماطها السلوكية والأسطورية، د. علي زيغور، دار الطبيعة، بيروت، ط ١، ١٩٧٧م، ص ٨٨.

(٤) مجموعة النيل، ص ٥٨.

ساق لنفسه نصيحة على لسان الطير الذي يلجأ إلى الانطلاق في الفضاء كلما ضاق ذرعًا بحياته، وتمنى الشاعر أن يكون كالطائر في سعادته وسروره، ولكن أنى له هذا؟ فالدلالة النفسية مستوحاة من معنى الحرمان والعجز عن تحقيق المراد.

ومن القصائد التي تبدو فيها دلالة الطبيعة على نفس الشاعر الأسيانة قصيدته إلى الصخرة التي يقول فيها[1]:

لا تثيري بمن أتاك الظنونا أنا ذاك الفتى الذي تعرفينا

عركته الحياة دهرًا فلما صرعته انزوى يئن أنينا

يتلوى لأن فيه جراحا من قناة أطرافها لن تلينا

صوبت رأسها العسوف إليه فتردى الفؤاد منها طعينًا

ففي هذه القصيدة يهرع الشاعر إلى رابية في أعلى قمة جبل (قيقعان)، كان يقضي بها الأصايل، قصدها فتعثر في الصخور المتناثرة هناك، وخاطبها خطاب الجريح المتلوي من شدة ما به من آلام وجراح. ولو تأملنا ألفاظه وتراكيبه في الأبيات لعلمنا إلى أي مدى كان الشاعر معبرًا عن حالته النفسية التعسة التي انتابته، ومن هذا (تثيري، الظنون، عركته، صرعته، انزوى، يئن أنينا، يتلوى، جراحا، العسوف، فتردى، طعينًا، مثخنا بالجراح، الألم الصارخ، أتون). إن تأمل مفردات الشاعر وصوره ولاسيما صورة القناة التي صوبت رأسها نحو قلبه يجعل المتلقي يشارك الشاعر حالته التي كان عليها من حزن وضجر وهم وألم.

وجأر الشاعر بشكواه إلى الصخرة وذكَّرها بأيامه الخوالي عندها وبثها نجواه، وأسرَّ إليها بمعاناته وأنينه فقال[2]:

وأنا رحلها المغذ وعندي أودعت سرها الخطير دفينا

ليس سرٌّ سوى جحيم تلظى وعليه قد خلفتني الأمينا

([1]) مجموعة النيل، ص ٢٣٢.

([2]) مجموعة النيل، ص ٢٣٢.

بعـــد لأي عرفـــت أن الليـــالى خـــدعتني فجئـــت أشـــكو الخؤونـــا
فاســـمعي مـــا أذيعـــه وأصـــيخي مثلمـــا كنـــت ســـابقًا تـــسمعينا
أو ما كنـــت فـــي صـــباي كنـــايٍ أتغنـــى برجـــع مـــا تنـــشدينا؟
حولـــك الليـــل ســـاكنًا والـــدراري راقـــصات تـــداعب المفتونـــا

يبدو في هذه الأبيات عمق الإحساس بالمكان، فهو يتخذ من هذه الصخرة متكأ آمنًا يهرع إليه إذا ألمت به الخطوب وحضرت رحله الهموم، وهو يتذكر معها أيامه الخوالي التي كان يقضيها إلى جوارها هانئا مسرورًا، ثم ما لبثت أن قلبت له الحياة ظهر المجن، وحولت حالته من النقيض إلى النقيض، فبعد أن كان في غاية السعادة والسرور سار في حالة من التعاسة والشقاء، إنه يلجأ إلى سنده الصخرة، ومعادل نفسه الموضوعي، تلك التي تمر بها الأيام والليالي، وتكر عليها الشهور والسنون ،وعوامل التعرية وغير ذلك، وهي راسخة ثابتة لا تتغير.

وبعد أن صور حياته حيث المرح واللهو والأماني والبشر صور ذاته بعد أن انقلب به الأمر من النقيض إلى النقيض؛ إذ استحالت حياته ألمًا وهمًا بعد أن كانت صفوًا وهناءة فقال[1]:

وإذا لاعـــج المآســـي تلظـــى وبـــدا مـــا بـــدهرنا مـــستكينا
فـــشواظ الأيـــام يقفـــو خطانـــا وســـياط الآلام يلهـــب فينـــا
جِـــدُّ أيامنـــا المريـــرة آلٌ خـــدعتنا بُرُوقُهـــا فمـــشينا
كلنـــا يكـــرع الهمـــوم ويُـــسقى ويقـــيم المنـــون خـــدنا خـــدينا
وإذا عاصـــف مـــن العـــيش أودى بـــشج جُـــنَّ بالأمـــاني جنونـــا
وأمـــانيَّ فـــي مكانـــك كانـــت أنـــا ذاك الفتـــى الـــذي تعرفينـــا

(1) مجموعة النيل، ص ٢٣٢.

تنبئ الأبيات عن ظاهرة القلق النفسي التي سيطرت على الشاعر، والخوف من الموت أو الانهيار أمام تلك الصعوبات، مما جعله يهرع لتلك الصخرة يتلمس من محيطها معنى الخلود والصمود والتحدي، يدلنا على ذلك استخدامه لأفعال المضارع، وكما صور حياته حال السعادة والنعيم صورها حال الشقاء والتعاسة، وهو في الحالين يشهد الصخرة على آماله وآلامه، إنها قمة المشاركة الوجدانية بين الشاعر والطبيعة، فهو لا يصف الصخرة من الخارج، وإنما يتحد معها ويذوب في أحنائها، فيصيران كلاً واحدًا، وهذا ما نجده عند كبار الشعراء الرومانسيين ولاسيما إبراهيم ناجي[١].

والقصيدة بها ملمح آخر من أهم ملامح الشعراء الرومانسيين هو "الذاتية". وأقصد بالذاتية هنا ما يقابل "الموضوعي"، على اعتبار أن شعر الشاعر الرومانسي يعكس ذاته: خواطره، وأحلامه، وأوهامه، وخيالاته المتنوعة المتعددة.

والذاتية: «ما ينتسب إلى الذات، مما يتصل بها أو يخضع لها، فيقال: تفكير ذاتي، وإدراك ذاتي، ويقابل الموضوعي...»[٢]. والذاتية أيضًا: «نزعة ترمي إلى رد كل شيء إلى الذات، وتقديم الذاتي على الموضوعي ...»[٣].

وقد كانت الذاتية ملمحًا بارزًا في الاتجاه الرومانسي: «بما أن الأدب الرومانطيقي أدب مشاعر وانفعالات حارة وأحلام تخرج بين الحقيقة والخيال، وكان لابد من صياغه شعر يترجم بأمانة هذه الحالات. وتلك الانفعالات، لأن الشعر أغلب على تصوير ذلك من النثر. من هنا هذا الطبع الشخصي الذي يواكب قصائد الشعراء الرومانطيقين ويجعل منها امتدادًا لذواتهم وبدلا آخر عن هذه الذوات، ويترجم بأمانة وصدق معالم عواطفهم وحنايا صدورهم، يقول فيكتور هيجو: «إن الشعر هو النواحي الحميمة في كل شيء ... والشعر يجب أن يعرف بذات الشاعر وشخصه أكثر من فنه الشعري»[٤].

---

(١) انظر: جماعة أبوللو وأثرها في الشعر الحديث، د. عبدالعزيز الدسوقي، ص ٤٥٥.

(٢) المعجم الفلسفي، د. جميل صليبا، ص ٨٧.

(٣) المصدر السابق: ٨٧.

(٤) مذاهب الأدب: معالم وانعكاسات، د. ياسين الأيوبي، ص ١٩٦.

ويشير أحد الباحثين المحدثين إلى ناحية الذاتية في الأدب الرومانسي فيقول: «أهم خصائص الرومانسية هي الذاتية أو الفردية»[١].

ومن أجل ذلك نرى الرومانسي: «يفضل الشعر على الفلسفة، والعاطفة على المنطق، والمثالي على الواقعي، والأمل على التلاؤم مع الواقع»[٢].

ويمثل شعر طاهر زمخشري في مظهره الرومانسي ما يخدم منحى: "الذاتية"، ولاسيما في القصيدة التي معنا، فنجد ذاتية الشاعر واضحة فيها.

«إذ يستنطق "الصخرة"، وهذا الاستنطاق يتم وفقًا للنهج "الحواري" أو الكلامي الذي أقامه الشاعر مع الصخرة، حيث بثها الآمه وحزنه ومعاناته مع شيء غير قليل من التضمين، كما يتصل ويلفت النظر في هذا المقام الإشارة إلى "الذات" في بداية القصيدة ونهايتها، ففي بداية القصيدة[٣]:

لا تثيري بمن أتاك الظنونا أنا ذاك الفتى الذي تعرفينا...

وقد تكرر شطر البيت الثاني: "أنا ذاك الفتى الذي تعرفينا" في نهاية القصيدة:

وأمانيَّ في مكانك كانت أنا ذاك الفتى الذي تعرفينا

وقد مزج الشاعر بين الشكوى إلى الصخرة والحديث إلى "الذات" بشكل يعكس إلى حد كبير صمود تلك "الذات" في مواجهة الألام والصعاب...

وقد يكون في الحديث إلى "الصخرة" استلهام الشاعر لمعاني الصلابة، والصلابة لنفسه التي تشكو قسوة الأيام ومعاناة الأيام، وفي معنى "الصخرة" استيحاء لذلك الشعور بالقوة والصلابة التي يحتاجها الشاعر في موقف كموقفه من آلام الحياة وصعابها.

أما قافية القصيدة "النونية" بالألف الممدودة، فهي انعكاس صادق لأنين الشاعر، وأناته المديدة التي أطلقها، فكان الوادي المحيط بالجبل يتلقاها ويصنع لها الصدى المديد الذي يتناسب مع تلك الأنات التي احتفرها الزمن والآلام في أعماقه، فصدرت لاهثه

---

(١) المذاهب الأدبية، د. نبيل راغب، ص ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧.

(٣) مجموعة النيل، ص ٢٣٢.

مديدة ورددت الوديان من حول الجبل صداها المديد في عمق وألم... «نا.. نا.. نا.. نا..»[1].

وقصيدة طاهر زمخشري التي بث شكواه فيها إلى الصخرة -كما رأينا- تذكرنا ببعض القصائد للشعراء الرومانسيين العرب، ومنهم الشاعر التونسي: أبو القاسم الشابي، الذي بث شكواه إلى "الزنبقة الذاوية" في قصيدة منها[2]:

أزنبقـــــة الـــــسفح؟ مـــــالي أراك تعانقـــــك اللوعـــــة القاســـــية؟

أفـــي قلبـــك الغـــض صـــوت اللهيـــب ترتـــــل أنـــــشودة الهاويـــــة؟

إذا أضـــــجرتك أغـــــاني الظـــــلام فقـــد عـــذبتي أغـــاني الوجـــوم

أصـــيخي فمـــا بـــين أعـــشر قلبـــي يـــرف صـــدى نوحـــك الخافـــت

معيـــدًا علـــى مهجتـــي بخفيـــف جناحيـــه صـــوت الأســـى المائـــت[3]

هذه الشكوى التي بثها الشابي "الزنبقة الذاوية"، والتي وجد في حالها حالة تشبهه، نوع من بث عناصر الطبيعة الشكوى، كما رأينا عند الزمخشري في قصيدة "إلى الصخرة"، ومع التفاوت بين شعور الشاعرين، حيث الصلابة في شعور الزمخشري، واعتداده الذاتي، واستسلام الشابي وإحساسه بمماثلة حالته "للزنبقة الذاوية"، مع هذا التفاوت بين الشاعرين، يظل الخيط الفني واحدًا وهو: بث عناصر الطبيعة الشكوي، وإقامة حوار ودي معها لفقد عنصر الحوار مع البشر، فكأن الزمخشري والشابي وجدا في "الصخرة" و "الزنبقة الذاوية" الصديق الحميم الذي يصيخ إلى الشكاة في زمن عز فيه الصديق المستمع من البشر، وعالمه المادي الصاخب...

ويسترعي انتباهنا هذا الجانب في قول الشاعرين، مؤكدين على جانب الاستماع والإصاخة، حيث يقول الزمخشري:

---

(1) مظاهر في شعر طاهر زمخشري، د. عبدالله باقازي، ص ٤٥.

(2) مظاهر في شعر طاهر زمخشري، د. عبدالله باقازي، ص ٤٦؛ وانظر: ديوان أغاني الحياة، الشابي، ص ٣١، ٣٢.

(3) ديوان أغاني الحياة، الشابي، ص ٣١، ٣٢.

فاســـمعي مـــا أذيعـــه وأصـــيخي مثلمـــا كنـــت ســـابقًا تـــسمعينا

وقول الشابي:

أصـــيخي فمـــا بـــين أعـــشار قلبـــي يـــرف صـــدى نوحـــك الخافـــت

ولعل قصيدة "إليك عني" هي التي تمثل حالة الشاعر النفسية خير تمثيل، وفيها يقول(١):

ســـألت الليـــل وهـــو يمـــد ســـترا مـــن الحلـــك الموشـــى بـــالغيوم

وفـــي جنحيـــه أفـــراح النـــدامى تنـــاغم بـــالهوى عبـــث النـــسيم

فتنتـــشر المبـــاهج فـــي دجـــاه تـــضمد مـــن جراحـــات الكلـــيم

"ترى ألقـــى لـــديك شـــفاء روحـــي؟!" فـــأطبق، ثـــم قـــال: إليـــك عنـــي

مـــددت الطـــرف أســـأله نـــصيبي فوصوص، ثـــم قـــال: إليـــك عنـــي

فقلـــت: البـــدر أعظـــم منـــه قـــدرا لمـــاذا لا أبـــوح لـــه بحـــالي؟!

فكـــم يـــصغي لزفـــرة كـــل شـــاج يناغيـــه بأســـتار الليـــالي

إذا بـــالزفرة الحـــرى نـــشيد جـــرت أنغامـــه الجـــذلى حيـــالي

فلمـــا أن هممـــت أبـــث شـــجوي تحجـــب، ثـــم قـــال: إليـــك عنـــي

فلمـــا الفجـــر لاح هتفـــت: بـــشرى تنـــضد بالـــسنا قمـــم الهـــضاب

أرى زحـــف المواكـــب مـــن ســـناه ينـــدي بالـــشذا خـــضر الروابـــي

فتنـــتفض الطيـــور مغـــردات بكـــل خميلـــة لمُنَـــىً عِـــذاب

فلمـــا أن تـــدانى مـــن مكـــاني تجهـــم، ثـــم قـــال: إليـــك عنـــي

فجئـــت الـــروض أرجـــو فيـــه وكـــرا أفـــيء إليـــه مـــن لفـــح الهجيـــر

(١) مجموعة النيل، ص ٢٨.

وأسكب في غلائله نشيدًا ينافس رقة عبق الزهور

فينتعش المصفق في الحنايا ويطرب من منادمة الطيور

فلما أن أحس بما أعاني تنكر، ثم قال: إليك عني

وعاودت المسير فجئت بحرا على أثباجه رقص الجمال

وتلهو فوق موجته العذارى فتضحك من تكسرها الرمال

وفي شطيه للندمان عُرس طروب ما لبهجته مثال

فقلت: "لديك هل ألقي برحلي؟" فزمجر، ثم قال: إليك عني

وكم رقصت أشعتها حيالي وقيثاري يغرد للبهاء

فواربَ بابه لأرى مكاني متى ضاقت بتطوافي الحدود

فقلت: يئست: قال: لديك روح وما أزهقتها فإليك عني..

يبدو من الأبيات السابقة أن شخصية النبي إبراهيم عليه السلام مستقرة في اللاشعور عند الزمخشري؛ إذ نجده يتماهى مع أبينا إبراهيم عليه السلام في بداية بحثه عن الحقيقة المطلقة في الوجود، والتي توجه من أجل معرفتها إلى الكواكب، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: ٧٦-٧٨].

والزمخشري من خلال الحوار الذي استنطق فيه مجموعة من العناصر الكونية المختلفة المتراوحة بين العناصر المظلمة (الليل، الحلك)، والمضيئة (البدر، النجم، الفجر)، والعناصر الطبيعية من مصادر النماء والري (الروض، البحر)، ومصادر الجدب والجفاف (القفر، القبر) يبحث عبر استنطاقها عن إجابة أو سبيل يدله على سعادة ثابتة لا تتغير، وهو بذلك يعكس للقارئ من خلال تصوير رحلته الكونية مفهوماً عن تقلب ذاته في الحياة بين مشاعر الحزن والألم والحرمان والسعادة والأمل، فيأتي رد عناصر الطبيعة "إليك عني" لازمة نصية نهاية كل فقرة، ونهاية القصيدة دلالة على

المجهول والحيرة واستحالة الديمومة على حالٍ في الحياة، إذن فالدلالة النفسية مستوحاة من نفس الإنسان البشرية المتأرجحة مابين التشاؤم والتفاؤل، والتي لاتستمر على حالة ثابتة، وقد التفت أحد النقاد إلى أن هذه القصيدة تمثل هروبًا إلى الطبيعة، وهو منحى من مناحي شعر الرومانسيين، يقول:

«والقصيدة يظهر فيها شاعرنا على مسرح الحياة في الطبيعة، وكأنه أحد من دعاماتها، إلا أنه لم ينسجم معها الانسجام التام، فإن نزعة التفاؤل وحب الحياة العادية باعدت إلى حدّ ما بينه وبين الطبيعة بأجرامها ومظاهرها، فهروبه في هذه القصيدة يقاس بمدى قربه وبعده من الطبيعة، ومدى تصويره لمظاهر الطبيعة، مما يبدو معه انفعاله الشديد وضجره بالحياة بنوعيها: الاجتماعية والعاطفية الواقعية..»[١].

ومهما يكن فقد كان شعر الطبيعة عند الزمخشري سجلاً أمينًا لحياته بآمالها وآلامها وأفراحها وأتراحها، أبرز فيه نفسه في حالاتها المختلفة، وعبر عن ذاته خير تعبير، وبدا فيه إعجابه بالطبيعة وحب العزلة، فهو يهرب إلى الطبيعة ويهرب إلى ذاته، فالشاعر الرومانتيكي ذاتي غير مقلد كالكلاسيكي، فكل ما يقوله الرومانتيكي نابع من ذاته، فشعره يفيض من قلبه، من إحساساته ومشاعره ،ولا يتقيد بالنقل والمحاكاة. «ومن الحق أن عصور الانتقال تخلق جوًا من القلق والتردد في النفوس بما توجده من صراع بين التقاليد الموروثة والتقاليد المستحدثة، ولكن إذا كان عصر الانتقال وحده هو المسؤول عن ذلك الألم وتلك الهموم التي تملأ أشعارهم، فلِمَ يتضح عندهم بهذه الصورة القوية دون غيرهم من الشعراء الذين عاصروهم...؟

الواقع أن الشعر الرومانتيكي الأوروبي كان عميقًا في نفوسهم، ثم في إنتاجهم، فالذين كانوا يحثون هذا الضيق هم الذين تغذوا على ذلك الأدب الرومانتيكي. فذلك الأدب بما يصوره من أجواء حالمة تضفي على الحزن والألم لونًا من العذوبة هو الذي حبب الألم إلى الشباب، وحتى القصائد التي ترجمها هؤلاء أو عربوها عن الشعر الأوروبي، تدل على مدى المجابهة وتأثرهم بذلك الشعر الحزين»[٢].

---

(١) طاهر زمخشري حياته وشعره، عبد الله عبد الخالق مصطفى، ص ٩٨.

(٢) تطور الشعر العربي الحديث في مصر، د. ماهر حسن حنفي، ص ١٨٢.

ولكن هذا الكلام عن الحزن والألم في شعر الرومانسيين يكون حقيقيًا في السابقين الأولين من هؤلاء الشعراء الذين تتلمذوا على الأدب الأوروبي، كأحمد زكي أبو شادي، وإبراهيم ناجي، وعلي محمود طه المهندس، أما شاعرنا وغيره من اللاحقين من الشعراء الرومانسيين فقد تأثروا بهؤلاء السابقين من الشعراء وإن لم يتتلمذوا تلمذة مباشرة على الشعر الأوروبي الرومانتيكي.

لكن الجدير بالذكر أن تعبير الشعراء الرومانسيين ومنهم شاعرنا عن أحوال نفوسهم جاء في طابع قصصي ظهر جليًّا في تلك القصيدة التي أوردناها منذ قليل (إليك عني)، وفي هذا تأثر بالشعراء الرومانسيين ولاسيما شعراء المهجر، فالأدب المهجري يمتاز بروحانيته الصافية في الشمال، وبوطنيته الصارخة في الجنوب.

والقصة في شعر المهجريين فن من أهم فنون شعرهم، القصة التي تتناول كل أحداث الحياة، القصة الشعرية التي تصور كل ما دق وجل من أمور الوجود، وقد نظمها شعراء المهجر وصوروا فيها حيرتهم وتساؤلهم وإلهامهم وأملهم وبكاءهم وفرحهم، نظمها إلياس فرحات، ورشيد أيوب، وأبو شادي، وإيليا أبو ماضي، وكان شاعرنا شديد التأثر به، ولاسيما في قصيدته الشاعر في السماء..[1]:

رآنـــــــــيَ الله ذات يـــــــــوم فـــي الأرض أبكـــي مـــن الـــشقاء

فـــــــــرق والله ذو حنـــــــــان علـــــى ذي الـــــضر والعنـــــاء

وقـــــال لـــــيس التـــــراب دارًا للـــــشعر فـــــارجع إلـــى الـــسماء

والحقيقة أن الذاتية والحزن والألم والهروب إلى الطبيعة تتجلى على الأخص في عدم الرضا بالحياة في عصرهم (الرومانتيكيين)، وفي القلق أمام عالمهم، وما يعج به من أحداث، وفى الحزن الغالب على أنفسهم في كل حال دون أن يجدوا له سببا، وهذه الحال ناشئة عن عدم توازن القوى النفسية عند هؤلاء الذين طغى عليهم الشعور بذات أنفسهم طغياناً يدفعهم إلى النقمة على كل ما هو موجود، فمن خصائص الذاتية الرومانتيكية:

١- عدم الرضا بالحياة والقلق أمام العالم وما يعج به من أحداث.

([1]) انظر: المرجع السابق، ص ٣١٤.

٢- الحزن الغالب على أنفسهم في كل حال دون أن يجدوا سببا.

لكن هذا لا يمنع أن في شعرهم تفاؤلاً كما يرى الدكتور محمد غنيمي هلال في قوله: «ومن الرومانتيكيين متفائلون، ومنهم متشائمون، ويدفع الخيال بكل الفريقين إلى سلوك طرق متباينة، ولكن يجمع بينهما أن فيها جميعًا هروبا من الواقع بضروب من أوهام العقل أو أوهام القلب، وفيها جميعا تتمثل أزمة من أزمات الإحساس والفكر، كأشد ما عرف الإنسان من أزمات الفكر والشعور»[١].

(١) الرومانتيكية، د. محمد غنيمي هلال، ص ٥٤.

المبحث الثاني
الدلالات الاجتماعية

الشعرُ تعبير عن الذات، فبروز الذات في الإبداع الشعري مقوم من أهم مقوماته الموضوعية، لكنه مع ذلك لابد أن يعبر عن الجماعة وتطلعاتها وأحلامها وآمالها من خلال تلك الذات، ولابد أن يعبر عن المجتمع ومن فيه وما فيه من خلالها أيضًا، فيعاب على الشاعر أن يكون انطوائيًا منعزلاً منكفئًا على ذاته في جميع شعره، ويعاب عليه أيضا أن يكون معبرًا عن الجماعة والمجتمع تعبيرًا غيريا لا تتضح فيه شخصيته، ولا يبرز فيه صوته، ولا تعلو فيه بصمته المتفردة وإحساسه الخاص.

والشعراء الرومانسيون وإن هربوا إلى الطبيعة واندمجوا فيها عَبَّروا أيضًا عن المجتمع وما يعج به من صراعات وقضايا، بل إن منهم من كانت له رؤيا اجتماعية متفردة للمجتمع من حوله، ومن هؤلاء الشاعر محمود حسن إسماعيل الذي نمت الرؤيا الاجتماعية في وجدانه نموًا مبكرًا، بل تربت معه، ورسبت في أعماقه منذ طفولته، واختلطت بنور عينيه وهو يشهد مأساة الفلاح المصري، وامتزجت بسمعه وهو يسمع أنين المظلومين، وسرت في قلبه وروحه وهو يتلوى من الألم للشقاء الذي يئن تحته آلاف الفلاحين، وكان لنشأته الريفية في أحضان القرية أثر كبير في انبثاق هذه الرؤيا وتجسيدها في ديوان أغاني الكوخ، وهو يحدثنا في مقدمة هذا الديوان عن ملامح تلك البيئة، وعن الظروف التي أوحت له بهذه الرؤيا، كأنه يخاطب نفسه[1].

وكان لشاعرنا طاهر زمخشري رؤيا اجتماعية متكاملة في شعره، لم يخل منها شعره في الطبيعة، ومن ذلك قصيدته "غضبة النيل" التي صور فيها الفيضان المعربد المدمر وما سببه من خسائر وفظائع للمصريين، نجد ذلك في قوله[2]:

أثارك الحقد؛ أم قد هاجك الغضبُ فسرت والهول في مسراك يضطرب؟

أب تقوم على الأبناء ثورته ومن عجائب دهر أن يثور أبُ

يرمي بنيه بأمواج معربدةٍ فيها المخاطر والأهوالُ تصطخِبُ

---

(1) انظر: محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة، د. صابر عبدالدايم، ص ٢٢٣.

(2) مجموعة النيل، ص ٢٥٤.

يــضج مــصطفقًا فــي جريــه قــدمًا يعيث يقصف ما شادوا ومــا نــصبوا

مــن الجــسور فــلا تلقــى لفورتــه مقاومًــا دون أن يلهــو بــه النَــصب

فمــن أثــارك يــا بحــرا ذخــائره تضيق عن حصرها الأرقــام والكتــب؟

فالشاعر الذي عاش في أرض الكنانة فترة ليست بالقصيرة من عمره هاله ما حدث للفلاحين وغيرهم من طبقات المجتمع المصري من أهوال ودمار بسبب فيضان النيل، فراح ينشئ هذه القصيدة التي أكدت أنه صدر فيها عن رؤيا حقيقية لفيضان النيل، ورؤيا الشاعر تنم عن تصور مبدع من تصورات شاعر عاشق شديد الحلم والتقدير للطبيعة والإنسان، فتشكلت الأحداث عنده في "ثورة الأب" على غير عادته، وراح يبحث في أسباب الثورة: أسباب فيه، وأسباب في بنيه، فشخص النيل وكأنه يبتغي أن يُشعر بنيه أنه متقلب كالبحر والأيام، وهذه سنة الطبيعة والزمان.

كما شخص النيل والداً يغضب على بنيه لِلهوهم، وأضغانهم، وأحقادهم، فيؤدبهم حتى يعودوا لرشدهم، فالدلالة الاجتماعية مستوحاة من رؤيا الشاعر الإنسان في مصر ونيل مصر كأسرة واحدة، النيل (الأب) والمصريون (الأبناء).

وفيضان النيل أو وفاء النيل، هي دورة طبيعية مهمة في مصر منذ العصور القديمة، ويعني فيضان النيل أي أن النيل يمتلئ بالكم الكافي من المياه كل عام. يحتفل بها المصريون كعيد سنوي لمدة أسبوعين بدءاً من ١٥ أغسطس. وتحتفل بها أيضاً الكنيسة القبطية بإلقاء إصبع الشهيد إلى النهر، ويعرف لدى الأقباط باسم إصبع الشهيد. ويعتقد المصريون القدماء بأن سبب فيضان النيل كل عام هو دموع إيزيس حزناً على وفاة زوجها أوزوريس. وقد مر فيضان النيل بثلاث مراحل، حيث يبدأ بموسم الفيضان، ثم موسم الظهور وموسم الحصاد. وبدون اكتمال هذه الدورة قد يموت الفلاحون جوعاً. وكان المصريون القدماء ثم الأقباط يعتمدون في تقويمهم على بدء المرحلة الأولى، موسم الفيضان. وفي عام ١٩٧٠م، اكتمل بناء السد العالي في أسوان، فمنع وصول الفيضان لمصر. وحالياً يستخدم الفلاحون الأسمدة في زراعاتهم، لعدم وصول الطمي مع مياه النيل. ويتوقف وصول الفيضان وراء السد عند حدود

السودان[١]. وإذا كانت هذه القصيدة قد وردت في ديوان شاعرنا الأول " أحلام الربيع " الذي صدر عام ١٩٤٦م، فيتعين أن يكون رأى الفيضان رأي العين، وأبدع فيه هذه القصيدة الرائعة.

وتتضح رؤية الشاعر الاجتماعية أيضًا– في قصيدته "الربيع العائد"، التي يقول فيها[٢]:

يـــا ربيعـــا مغـــرد القـــسمات مـــشرقا كالـــضحى بوجـــه الحيـــاة

عـــدت لـــي والأســـى يبعثـــر أفكـــا ري، ويرمـــي خـــواطري بالـــشتات

ونـــدوب الجـــراح تنثـــر أوصـــا لـــي، وتلهـــو بـــأعظمي النخـــرات

عـــدت لـــي والهمـــوم تمـــلأ نفـــسي فغـــسلت الهمـــوم بالبـــسمات

ونـــشرت الأفـــراح حـــولي بـــأحلى مـــا تمنيـــت مـــن رؤى غـــردات

يبدو في القصيدة تجسيد لمجتمع متمثل في زمان ومكان وإنسان، أما المكان فكان (شهار والمثناة)، وهما مكانان بالمملكة العربية السعودية شهدا سني طفولته وصباه، وأما الزمان فيتمثل بالعودة إلى الماضي من خلال الذاكرة، فهو يرجع إلى الزمن الماضي الجميل الذي كان فيه مع أقرانه (الإنسان)، يستمتعون بالربيع حيث الطبيعة، يتبادلون أحاديث الطفولة المحببة إلى النفس، ثم يعود بنا الشاعر مرة أخرى من الزمن الماضي الجميل إلى الحاضر، حيث زيارته إلى هذه الأماكن التي شهدت طفولته وصباه، وقد فارق الحياة من أصحابه من فارق، فالقصيدة رحلة إلى مرحلة من مراحل حياة الزمخشري الاجتماعية، وزيارة إلى الماضي بما فيه من جمال وبراءة. إن المتأمل في الأبيات يجد أنه يهرب عبر الزمان والمكان في إحساس متقد، وشعور اجتماعي راقٍ بالأصدقاء والأحباب.

---

(١) انظر: فيضان النيل: موقع ويكيبيديا http://ar.wikipedia.org/wiki

(٢) مجموعة الخضراء، ص ٤٨٢.

المبحث الثالث

الـــدلالـــة الـــرمـــــزيـــة

فهم "جوته" الرمز على أنه امتزاج للذات بالموضوع، والفنان بالطبيعة، وهذا منطقي مع نزعته المثالية التى ترد العالم الخارجي إلى رموز للمشاعر، وترى في الطبيعة مرآة للشاعر، وظاهرة ينفذ منها إلى قيم ذاتية وروحية [١].

أما "كانت" فذهب إلى أن الرمز بعد أن ينتزع من الواقع يصبح طبيعة منقطعة مستقلة بحد ذاتها[٢].

ويرى "كولردج" أن الرمز: ذلك الجزء الواقعي الموائم للكلي الذي يرمز إليه[٣].

والرمز بمعناه الدقيق يتميز بأمرين:

أولاً: أنه يستلزم مستويين، مستوى الأشياء الحسية، أو الصور الحسية التي تؤخذ قالبا للرمز، ومستوى الحالات المعنوية المرموز إليها، وحين يندمج المستويان في عملية الإبداع نـــحصل على الرمز.

ثانيًا: أنه لابد من وجود علاقة بين ذينك المستويين، هذه العلاقة التي تهب الرمز قوة التمثيل الباطنة فيه، نعني علاقة المشابهة[٤].

ويكاد يكون مقررًا عند بعض الدارسين أن الرمزية العربية بمفهومها المعاصر مدينة ببدايتها لجبران خليل جبران الشاعر والمفكر العربي المهاجر، فهو فيما يرى "مارون عبود" مؤسس مدرستين في لغة الضاد الرومانتيكية والرمزية[٥].

---

(١) انظر: الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، د. محمد فتوح أحمد، دار المعارف، ط ٣، ١٩٨٤، ص ٣٨.

(٢) انظر: الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون كرم، دار الكشاف، بيروت، ١٩٤٩، ص ٩.

(٣) انظر: الرمز الأدبي، وليام ورك تاندال، ترجمة: مصطفى عيسى، دار الثقافة، ١٩٦٥م، ص ٣٨.

(٤) انظر: سيكولوجية الرمزية، د. عدنان الذهبي، المجلد ٤، العدد ٩، فبراير ١٩٤٩، ص ٣٦٤ – ٣٦٥.

(٥) انظر: جدد وقدماء، مارون عبود، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٤م، ص ٧٢.

والرمز الأدبي تركيب لفظي يتطلب مستويين: مستوى الصور الحسية التي تؤخذ قالباً للرمز، ومستوى الحالات المعنوية التي نرمز إليها بهذه الصور الحسية(١). و"أنشودة الملاح" لدى الزمخشري تمثل هذا الاتجاه تمثيلاً واضحاً، فهو يقول فيها(٢):

الـــدجى بحـــر، وقلبـــي ســـابح وإلـــى أيـــن سيمـــضي ؟ لـــست أدري!

والنجـــوم الزهـــر فـــي عليائهـــا ســـفن للغيـــب بالأقـــدار تجـــري

وحواشـــي الليـــل مـــن ظلمائهـــا تمـــلأ الـــنفس بـــأهوال وذعـــر

وزمـــاني مربـــد يجتـــاحني بجحـــيم منـــه صـــال مكفهـــر

أذكـــر الماضـــي فـــأحنو لغـــدي والغـــد المرجـــو منـــي قيـــد شـــبر

والأســـى يحتـــث خطـــوي وأنـــا بـــين آلامـــي ووهمـــي ضـــاع عمـــري

فمتـــى ترســـو ســـفيني؟ فلقـــد طـــال مـــسراي وإنـــي لـــست أدري!

والرمز يتمثل في رحلة البحث في جنبات الغيب عن السعادة الكونية وفق المعتقد الديني الراسخ، فنهج منهجاً قرآنياً في هذه الرحلة يتماهى مع قصة أبينا إبراهيم في بحثه عن الحقيقة، حقيقة وجود الله ﷻ، متجهاً –في سبيل تلك المعرفة– إلى الكواكب الكونية التي استدل من خلال تأمله حركة تعاقبها على وجود الله ﷻ، وما الشمس والقمر إلا أياتين من أيات الله ﷻ.

واعتمد الشاعر في تصوير هذه الرحلة على:

تعدد الإيقاع "الرباعيات"؛ حيث تختلف القوافي كالموشحة، تعدد الأصوات حيث يتجاوب الشاعر مع عناصر الطبيعة، وكلا العنصرين من أهم وسائل الرمزية الشعرية.

وهو يتناص في هذه القصيدة مع قصيدتين شهيرتين لإيليا أبو ماضي، وكامل الشناوي، وكلاهما من شعراء الرمزية والرومانسية.

---

(١) انظر: مجلة علم النفس، العدد ٢ المجلد ٥ (يناير سنة ١٩٥٠م)، ص ٢٥٨ – ٢٥٩.

(٢) مجموعة النيل، ص ٢٢.

وفي قصيدة "القمر الساري" كان تعبيره عن الملمات والمصاعب التي مر بها[١]:

وتطوي حواشي الليل في بردة السنا وترمي بها رمي الحصاة لدى القفر

فالرمز (الحصاة) دلالة تعكس مدى قدرة الشاعر على الصمود، وقوة الصبر والثبات أمام تلك المصاعب، وبالرغم من رهافة الحس، وزخم الأحزان في حياته، وألمه المستمر من خطوب الحياة، إلا أن كبرياءه يأبى البكاء، ويفضل الصمت في مجتمع يدين دموع الرجل، فيرمز لتلك الدموع الخفية ببكاء الحمامة[٢]:

ويبكي كما تبكي الحمامة في الربى لينثر في ألحانه قلب شاعر

أليس في الكون بالصمت روعة يرف لها الخفاق إرفاف طائر

ورمز كثيرًا للمرأة المسلمة بالوردة، كما في قصيدته "إعزاز الورد" فقال[٣]:

هتفت وردة تقول لأخرى: احذري من أنامل الخطَّاف

وانشري العطر في الخمائل سترًا نتوارى بفيئه في ائتلاف

فالفناء المريع يضحك منَّا ثم تلهو حتوفه باللطاف

فأجابت: "إن الربيع يوشِّي برؤانا جماله.. لا تخافي"

فالرمز للمرأة المسلمة التي يغلب على إدراكها العقل والنضوج الفكري الأخلاقي، هي أحلى مافي الربيع، وهي المدركة لنهايتها الحتمية، فتسلك مسلك العفة والاتزان.

والجدير بالذكر أن الشاعر لم يكن من الذين يغرقون في رمزيتهم، فيحولون الشعر إلى وادٍ من الغموض والتعمية، وإنما كان يغلف شعره بستر من الضباب الخفيف، أو يغشيه بجو من الإيهام اللطيف، فيحول بينه وبين الدلالة المحدودة المباشرة، فهو لا يعطي مدلولاً وضعيًا أو مجازيًا دقيقًا، وإنما يثير في النفس أحلاماً ورؤى وأحاسيس مبهمة ينتقل بها إلى أودية خيالية بعيدة، تبحث عنها ذكريات قديمة، أو تحلق

---

(١) أنفاس الربيع، مج النيل، ص ٢٢٣.

(٢) أنفاس الربيع، مج النيل، ص ٣٢٠.

(٣) مجموعة النيل، ص ٥٣٨.

فيها علاقات بين الأشياء تبدو غريبة، «ففي الغزل السعودي كثيراً مايلجأ الشاعر إلى الرموز والإيحاء للتعبير عن معنى مادي، ويبقى لفظة مقبولاً لدى الأذن والمشاعر حين سماعه أو قراءته، ويبقى لهذا الغزل سماته الكبرى التي تميزه من سواه في أنه يرسم معالم البيئة في الجزيرة بكل مافيها: من صحراء وأراضٍ وسماء وجبال وبحار ومقدسات وتقاليد وأعراف ورجولة وعفة وتماسك شخصية ورقة عواطف»[1].

* * *

وهكذا كان للطبيعة في شعر طاهر زمخشري دلالات نفسية؛ إذ عبر فيها عن مكنونات نفسه وهواجس ذاته، وصور فيها آلامه وآماله، ووصف فيها معاناته واغترابه النفسي وشعوره بالغبن في مجتمع لا يُقَدِّر موهبته، ويحول بينه وبين طموحه.

كما كان لها دلالات اجتماعية؛ إذ عبر فيها عن آلام المكدودين، ودموع البائسين في بعض المجتمعات، أو رفضه لبعض الشخصيات الاجتماعية، والشاعر إنما سمي شاعرًا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، ويعبر عما لايستطيع غيره التعبير عنه.

وكان للطبيعة أيضا في شعره دلالات رمزية؛ إذ اتخذها رمزًا لما يمور في صدره، ويصطرع في نفسه، وكان هذا الرمز قريبًا شفافًا تارة، وأخرى يغلفه ستار من الضباب، لكنه لم يصل في شعره إلى درجة الغموض والإلغاز على نحو ما نجد عند بعض الشعراء الرومانتيكيين.

([1]) المكان في شعر طاهر زمخشري، رسالة ماجستير، سلمى محمد باخشوان، إشراف: حمدان عطية الزهراني، ١٤٢٩ه – ٢٠٠٨م، ص ١٣٠.

التوصيات:

١- توصي الباحثة بتقرير عدة قصائد من شعر طاهر زمخشري على طلاب وطالبات المراحل التعليمية المختلفة.

٢- توصي الباحثة بالاهتمام بشعر طاهر زمخشري، في الكليات الجامعية المتخصصة في اللغة العربية وآدابها.

٣- توصي الباحثة بعقد مؤتمر أدبي كبير يتناول شعر طاهر زمخشري بالدراسة والنقد يحضره لفيف من الباحثين والنقاد من المملكة وغيرها من الدول العربية، لأنها ترى أن شعره لم ينل المكانة التي يستحقها بعد، فهو شاعر لا يقل بحال من الأحوال عن أكابر الشعراء في عصرنا الحديث في المملكة وغيرها من الدول العربية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

المصادر:

- مجموعة الخضراء، طاهر زمخشري، مطبوعات تهامة، جدة، ط ١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- مجموعة النيل، طاهر زمخشري، مطبوعات تهامة، جدة، ط ١، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

المراجع:

- الاتجاه الرومانسي في الشعر العربي الحديث، د. قريرة زرقون نصر، بنغازي، ليبيا الجماهيرية، ٢٠٠٦م.
- الأدب الحديث: تاريخ ودراسات، محمد بن سعد بن حسين، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط ١، ١٤٠٤هـ -١٩٨٣م.
- التحليل النفسي للذات العربية: أنماطها السلوكية والأسطورية، د. علي زيغور، دار الطبيعة بيروت، ط ١، ١٩٧٧م.
- التفسير النفسي للأدب، د. عز الدين إسماعيل، مكتبة غريب، القاهرة، ط ٤.
- جدد وقدماء، مارون عبود، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٤م.
- جماعة أبوللو وأثرها في الشعر الحديث، د. عبد العزيز الدسوقي، طبعة الهيئة العامة للكتاب.
- ديوان أغاني الحياة، الشابي.
- الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، د. محمد فتوح أحمد، دار المعارف، ط ٣، ١٩٨٤م.
- الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون كرم، دار الكشاف، بيروت، ١٩٤٩م.
- الرومانتيكية والواقعية في الأدب، حلمي مرزوق، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٣م.
- الرومانتيكية، د محمد غنيمي هلال، نهضة مصر، ١٩٧١م.
- الشعر الحديث في المملكة العربية السعودية خلال نصف قرن، د. عبدالله الحامد، دار الكتاب السعودي، الرياض، ط ٢، ١٤١٣ه - ١٩٩٣م.
- شعر الطبيعة في الأدب العربي، د. سيد نوفل، دار المعارف، مصر، ط ٢، ١٩٧٨م.
- شعر طاهر زمخشري، مريم سعود بو بشيت، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة القاهرة، عام ١٩٨٨م.
- شعر محمود حسن إسماعيل، دراسة فنية، د. محمد على هدية، المطبعة الفنية، ١٩٨٤م.

- طاهر زمخشري بين النقاد، صالح بن زياد غرم الله، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، ١٤٢١هـ.
- طاهر زمخشري: حياته وشعره، عبدالله عبد الخالق مصطفى، مؤسسة سعيد للطباعة، طنطا، مصر.
- الطبيعة الرومانسية في الشعر العربي الحديث، د. أحمد عوين، دار الوفاء، الإسكندرية.
- الطبيعة في الشعر الأندلسي، د. جودة الركابي، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٩م.
- الطبيعة في الشعر السعودي منذ توحيد المملكة، ميمونة بنتن، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات بجدة، ١٤٠٥م – ١٩٨٥م.
- الطبيعة والشاعر العربي، د. حسين نصار، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٧٤م.
- محمود حسن إسماعيل بين الأصالة والمعاصرة، د صابر عبد الدايم، دار المعارف، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.
- مظاهر في شعر طاهر زمخشري، د. عبد الله باقازي، دار الفيصل، الرياض.
- معنى الحياة، أ. آدلر، ترجمة: عادل نجيب بشرى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.
- المكان في شعر طاهر زمخشري، رسالة ماجستير، سلمى محمد باخشوان، إشراف: حمدان عطية الزهراني، ١٤٢٩ه – ٢٠٠٨م.
- النظرية الرومانتيكية في الشعر (سيرة أدبية)، كولريدج، ترجمة: عبد الحكيم حسان، ط المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.
- نظرية الطبيعة والعودة إلى الأصل، د. صلاح عيد، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ١٤١٦هـ.
- الوصف في شعر طاهر زمخشري، د. السيد أبو شنب، مجلة مركز الخدمة للاستشارات البحثية، كلية الآداب، جامعة المنوفية، مايو ٢٠١١م.

مراجع أخرى:

- تونس الخضراء في وجدان طاهر زمخشري، المجلة العربية، ع١٢٠، السنة ١١، محرم ١٤٠٨هـ – سبتمبر ١٩٨٧م.
- رحلة إلى الموت، طاهر زمخشري، صحيفة البلاد، العدد ٨٤٠٠، رقم ٤، الحلقة السادسة، ١٤٠٧/٣/١هـ – ١٩٨٦/١١/٣م.
- سيكولوجية الرمزية، د. عدنان الذهبي، المجلد ٤، العدد ٩، فبراير ١٩٤٩م.